بقلم : احمد السيد عوضين

نحن فى شهر رمضان ، وهو شهر ـ كما يقال ـ يحب الاكل ! وقد عودتنى زوجتى ألا يأتى المغرب الا والمائدة حافلة بالوان الطعام من أعداد يديها الكريمتين ·· وكنت فى صبيحة يوم الجمعة الماضى ما زلت مسترخيا فى السرير عندما دخلت على ، وقد رسمت على ثغرها بسمة ـ أعرف معناها تماما ـ فبادرتها قائلا :

ـ أيوه ·· يا ستى ·· يا صباح الخير ·· فيه ايه ؟

ـ صباح النور على عيونك يا أبو محمود ·· انت لسه نايم يا روحى ··! قوم ·· دى الساعة بقت تسعة !

ثم توقفت عن الحديث ، ومدت يدها فازاحت عنى الغطاء وهى تتابع قولها :

ـ الله!· ·انت موش عارف ان أنبوبة الباتوجاز خلصت ؟

ـ طيب ·· ما تطلبى واحدة غيرها ·

ـ ما طلبت يا روحى ·· طلبتها من بدرى ·· وقالوا لى: هتيجى زى النهاردة ·· يوم الجمعة الجاية ان شاء الله ·

ـ موش مهم ·· استعملى بواجير الجاز ··

ـ بواجير الجاز !· ·

وازدادت ابتسامتها اشراقا وهى تقول :

ـ ما انت عارف يا روحى ان البواجير كلها عايزة تصليح .. ولو بعت البنت تصلحهم موش راجعة النهاردة ··

وتوقفت عن الحديث لتتركنى أسألها:

ـ هيه ·· والمطلوب منى ايه ··! أروح أنا أصلحهم ؟

ـ اللى تشوفه يا روحى ·! أخلى البنت تسبقك بيهم عند العجمى السمكرى ؟

فدهشت لقولها·· وتساءلت لفورى:

ـ العجمى !· ·عجمى مين يا ست ؟

ـ الله ·! العجمى ·· السمكرى ·· ايه ! نسيته ؟

ـ لا ·· ما نسيتوش ··

قلت ذلك، وأنا أرنو اليها · وأتأمل وجهها الذى مازال يحتفظ بكثير من معالم جماله ، فشعرت ـ وربما لأول مرة منذ زمن بعيد ـ بأحاسيس تجيش فى صدرى ، ويضطرب لها فؤادى ·· أحاسيس قد تعتبر غريبة على رجل مثلى

فى منصف العقد الخامس من عمره ، وأب لخمسة أولاد وبنات ..!

غير أن زوجتى ـ أوالست أم محمود ـ لم تتركنى طويلا أنعم بتلك الاحاسيس اذ ما لبثت أن ضحكت وهى تقول :

ـ ايه .. مش هتقوم ؟ والا موش عايز تاكل كنافة النهاردة ؟

ـ ازاى .. لا .. أبدا .. أنا قايم اهه ..

ونهضت في تثاقل .. وبعد فترة كنت عند السمكرى .. أقف «على يديه» حتى ينتهى من اصلاح «البواجير» !..

وفى دكان السمكرى ـ سمكرى القاهرة الذى لم أكن أعرف اسمه ـ تذكرت .. تذكرت ذلك اليوم الذى نادت على أمى فى صباحه وطلبت منى أن آخذ «الباجور» وأذهب به الى العجمى السمكرى ، وأقول له انه « مكتوم » ، و « يهب » ، ويلزمه نفخ ، و«تسليك» .. ورغم أننى كنت أحب الذهاب الى دكان العجمى، لما فى ذلك من متعة كبيرة لصغير مثلى ، فاننى سارعت أقول فى خبث : « لأ .. موش رايح » وكنت أعرف أنه لا يوجد عندنا غير هذا « الباجور » ، ولا بد من اصلاحه حتى يمكن اعداد طعام الغداء ، والا حدث مالا تحمد عقباه ، لأن أبى كان على سفر ، يعود منه بعد الظهر بقليل ، ولا بد من اعداد « لقمة هنية » تكون فى انتظاره عند وصوله بالسلامة .. وكانت تلك فرصة نادرة ألهمنى عقلى الصغير بضرورة انتهازها .. ولذلك فعندما قلت : «لأ» لم تسارع أمى الى « المقشة » ـ كدأبها معى ـ ولم يرتفع صوتها بى ، ولعنى ووصفنى بأننى « مقصوف الرقبة » وغير فالح .. لم تفعل شيئا من ذلك ، لانها كانت فى حاجة لخدماتى .. بل على العكس من ذلك ضحكت لى ، وربتت على ، وراحت ترجونى فى صوت رقيق: « يا الله يا حبيبى .. خد انوابور صلحه .. عشان نجهز الغدا لابوك » ولم تفلح هذه الرقة ، بل زادتنى عنادا ، فما كان من أمى الا أن لجأت للسلاح الاخير ، فقالت : « طيب روح ، وابقى خد لك قرش » فقلت : « لا .. هاتى الاول » وزيادة منها فى ترضيتى ، مدت يدها فى صدرها ، ونقدتنى القرش .. وكان ذلك هو قصدى من كل تلك المحاورة.. فما ان أحسست بالقرش فى يدى حتى سارعت فخطفت « الباجور » وانطلقت اغدو به الى دكان العجمى ، وصوت أمى يلاحقنى : « خليه يصلحه ، ويسلكه ، واوعى تغيب .. أنا مستنياك عشان غدا ابوك » .

وفى لمح البصر كنت عند العجمى ، فالقيت اليه « بالباجور » وأخبرته بالمطلوب ، وقلت له : « يا الله يا عجمى شغل منفاخك » ، غير أن العجمى لم يحقق طلبى بسهولة ، ففى يده «شغلة» يريد أن «يخلصها» أولا . ولذلك راح يقول لى : « روح انت وأنا ها اجيبه .. أنا ها امسك فيه بعد الكوز اللى فى ايدى على طول » ، ولم « يدخل » على هذا الكلام ، لاننى « فاهم » العجمى ، وفاهم « حركاته » ، ولذلك سارعت فخطفت الكوز من يده ، وألقيت اليه « بالباجور » فلم يجد بدا من أن يترك ما بيده ، ويشتغل فيه ـ وأمره لله ـ !

ووقفت أرقبه ، وهو يتفحصه فى دقة ،وعلى مهل ، محاولاأن يعرف سبب العطل ، وجعل يدق هنا تارة ، ويخبط هناك تارة أخرى ، ثم يضع اصبعه الاسود الغليظ ، على «الفونية» ويعطى للباجور « نفسا » ثم يرفع اصبعه عنها،

فيعلو الجاز في خيط رفيع طويل .. !

وكنت أتابعه في لذة، ونشوة، منتظرا في لهفة تلك اللحظة الحلوة التي يتم فيها نزع « الكوشة » وتركيبها على « منفاخ الرجل » ، فهذه العملية لطيفة ، ويبلغ لطفها منتهاه عندما يطلب مني العجمي أن أتولى عنه النفخ ، فانحني بجسدي الصغير، على منفاخ الرجل ، وارتفع به، ثم أبذل أقصى جهدي للضغط عليه الى أسفل .. وحينما أفلح في ذلك يكون العرق قد تصبب غزيرا من جبيني ، وتكون نشوتي — في ذات الوقت — قد بلغت حدا كبيرا ..

وفي انتظار تلك اللحظة الحلوة راح العجمي « يرغي » معي ويسألني :

— أبوك جاي من مصر امتى ؟

— النهاردة الضهر .

— وهوه مسافر ليه ؟

— بيزور أهل البيت .

— وانتم طابخين ايه النهاردة ؟

— دابحين

— واختك هتجوز امتى ؟

— في الايراد .

وكان من الممكن أن يمضي هذا «الرغي» الى غير نهاية، لولا أن أقبلت وردة عليتا تقفز في شقاوة ، وعندما وصلت الى باب الدكان سألت العجمي :

— عملت الفانوس يا عجمي ؟

— أيوه .

— طيب هاته .

— تعالى بكره خديه .

— بكره ايه ؟ احنا عايزينه النهاردة .. الوقتي أهه .. أبوي واخواتي سارحين النهادة بالليل، علشان هيباتوا ع الساقية ، وأمي قايله لي ماتجيش من غيره .

— سلمي لي على أمك وقولي لها: العجمي بيقول لك حاضر من عيني الاتنين ..

واستهواني حديث ورده الصغيرة ، فقلت لها :

— أبوك واخواتك هيباتوا ع الساقية؟

— أيوه .

— ويفضلوا هناك طول الليل ؟

— أيوه .

— وانت بتروحي معاهم ؟

— أمي ماتترضاش .

ورأنا العجمي قد انهمكنا في حديث شغلنا عنه ، فوضع « الباجور » بجانبنا وشغل نفسه « بالكوز » الذي لم يكن ينقصه سوى اللحام ، فلما تنبهت الى ذلك ، وطلبت منه اصلاح « الباجور » أولا ، قال لي : « طيب .. حالا .. بس أما المكوة تسخن » ، ورغم أنني كنت أعرف أنه لا لزوم « للمكوة » بالمرة في تسليك «الباجور» فان وردة لم تترك « الباجور » اليه ثانية ، فقد جذبتني من كتفي ، و « أخذتني على جنب » ، وواجهتني باسمة ، وقالت لي هامسة :

— شايف الطوق اللي هناك ده ؟

وأشارت الى ذلك الطوق الحديدي الذي ينتصب شامخا في أحد أرجاء الدكان ، ويا له من طوق ! انني ما من مرة مررت فيها بدكان العجمي الاووقفت طويلا أرقب ذلك الطوق ، وأتأمله مشغوفا ، متمنيا من أعماقي أن يكون لي لألعب به .. وهو لاتنقصه سوى يد من السلك ليصبح من الممكن الجري به .. يجري أمامي ، وأنا من خلفه ألاحقه .. فلا هو يسبقني ولا أنا ألحق به .. ولكن كيف السبيل الى هذا الطوق ؟ ..

وقالت وردة :

— شايفه ؟

— أيوه .. دا انا شايفه من زمان ..

ونفسى آخده.. لكن بس ازاى والعجمى عينه زى عين الصقر ؟

ـ مالكش دعوه انت .

ـ صحيح والنبى ؟

ـ صحيح.. بس على شرط اننالعب به سوى .

ـ طبعا .. نلعب به سوى ، وهوه انا احب العب مع حد تانى غيرك !

ـ طيب .. انت بقى عليك تقف قدام العجمى وتشاغله بالكلام ..ولما تلاقينى بعدت عن الدكان سيب العجمى والحقنى هتلاقينى مستنياك ورا الجامع .

ـ ومعاى الطوق .. بس عليك تجيب سلك ..

وسارعت فتركت وردة وواجهت العجمى ، فوجدته منهمكا فى لحم «كوز» ثان ، فما كان منى الا أن طلبت منه أن يخلص « الباجور » أولا وقبل أى شىء آخر ، فلما أيقنت أنه قد يئس تماما ، وأوشك أن يلقى ما بيده و « يمسك » فى الباجور .. قلت له :

ـ طيب .. هات حتة سلك ، وأنا استنى عليك لما تخلص الكوز .

ومد العجمى يده وراء ظهره ، وجذب سلكا طويلا ألقاه الى وهو يقول :

ـ خد يا سيدى السلك اهه .. واسكت بقى عنى ..

وحينما أخذت السلك ، كانت وردة قد انسلت خارجة من الدكان دون أن يشعر بها أحد ، فسارعت اليها ـ خلف الجامع ـ ومعى السلك الطويل، فوجدتها فى انتظارى ، ومعها الطوق الحديدى ، وكانت فرحتى بهذا الطوق كبيرة جدا ، فمنذ اليوم سيصبح لى طوق ، ولن أنظر فى حسد الى أولئك الذين لديهم أطواق يعدون بها فى زهو وافتخار ، بل سأجرى معهم ، أسابقهم وأسبقهم ، ولن يتفوق على أحد منهم ، والفضل فى ذلك كله لوردة .. واعترافا منى بفضلها أعطيتها القرش الذى معى والذى أخذته من أمى « بعد طلوع الروح » ، وطلبت منها أن تذهب ، وتشترى به « كرملة » وتعود الى لنمتصها نحن الاثنين معا .. وعادت وردة بعد قليل ومعها «الكرملة» ـ عشر حبات ـ فجلسنا فى الساحة الكبيرة الواقعة خلف الجامع ورحنا نمص « الكرملة » معا بعد أن اقتسمناها بالتساوى ، وفى ذات الوقت أخذنا نصلح السلك معا ، ونصنع منه يدا للطوق ..

وكنت فى ذلك الوقت لم أتجاوز العاشرة من عمرى ، ولكنى كنت أسبق سنى بكثير ، وكان كل من يعرفنى يقول عنى أننى ولد ناصح ، وأننى ـ اسم النبى حارسنى ـ رجل من يومى .. أما وردة فكانت فى مثل سنى هى الاخرى ـ أو أقل بعامين ـ غير أنها كانت تمتاز عن كل بنات القرية بشعرها الاصفر ، وعينيها الخضراوين ، وبشرتها البيضاء، وكنا كثيرا ما نلعب معا « استغماية » أو « حاورينى يا طيطه » أو « يا عم ياجمال» .. ويشاركها فى هذه الالعاب أولاد آخرون يعادلوننا فى العمر ، لكننا كنا نبزهم جميعا فى الشقاوة ..

وكنا ـ أنا ووردة ـ لا نفترق مطلقا فى اللعب ، فنحن الاثنين دائما « مع بعض » لا يحلو لنا الا اللعب معا .. بل اننى كان من عادتى ألا أقبل مطلقا على اللعب فى اليوم الذى تغيب فيه وردة ، بل كنت أنصرف عن ساحة اللعب ، وليست بى أدنى رغبة فيه . فقد كنت أحب « اللعب » مع وردة جدا

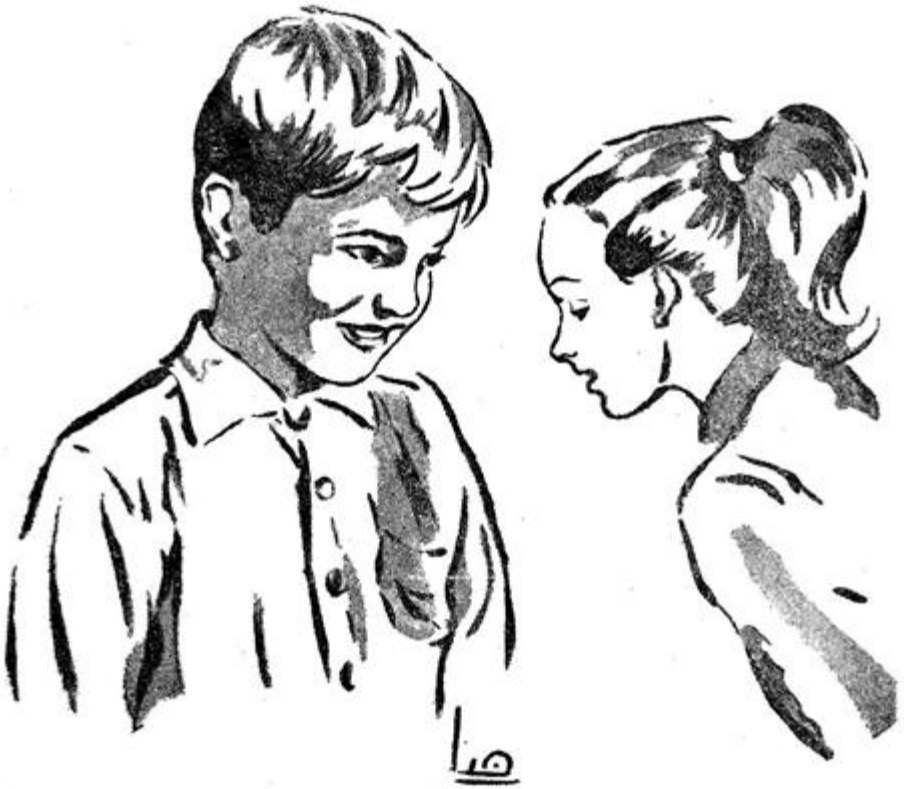

.. واذا ما جريت وراءها لأمسك بها اراها تحاورنى و « تزوغ » منى ، ولا تستسلم لى الا بعد عناء كبير ، ورغم ذلك فلم أكن أحاول مطلقا أن أعتدى عليها بالضرب حينما أمسك بها ـ كما تقضى بذلك أصول اللعبة ـ كما أنها هى الأخرى لم تكن تحاول أن « تزوغ » منى بعدما أمسك بها ، بل كنا نعدو جنبا الى جنب مستغرقين فى الضحك ، شاعرين بالسرور ، وأجد يدى تمتد ـ دون سبب مفهوم ـ الى شعرها الحريرى تتحسسه فى رفق ، ثم تهبط الى خدها الوردى الجميل تلمسه فى حنان ، ثم تستقر على كتفها ، وتظل كذلك طوال الطريق..!

وقد جلسنا فى ذلك اليوم متجاورين وانهمكنا معا فى صنع يد للطوق ، ونهضنا بعد ما أتممنا صنعها لنجرب الطوق ، فاشترطت على وردة الا أمضى بالطوق بعيدا ، ورغم أن التجربة نجحت ودار الطوق بسرعة ، واندفع الى الامام، وأحسست بألف دافع ودافع يستحثنى الى أن أعدو بالطوق أجوب شوارع القرية ـ بلدنا ـ فى تيه وافتخار... رغم ذلك فقد خضعت لوردة و « سمعت كلامها » الذى اتبعته بابتسامة كنت أعرف معناها تماما ... ولذلك اكتفيت بأن درت بالطوق حيث كنا عددا من الدورات ووردة ورائى ، تدور معى، وهى تضحك

فى سرور ·· وأعطيتها الطوق ـ بعد ذاك ـ لتأخذ نصيبها هى الاخرى ، ودرت معها دورتين ·· وفى الدورة الثالثة اصطدمت وردة « بقالب من الطوب » ، فوقعت على الارض ، وجرح اصبع قدمها ·· وعندما رأيت أصبعها ينزف دما انزعجت ، وسارعت فانحنيت عليها وأجلستها وأمسكت بالاصبع المجروح ورحت أمسح الدم عنه ·· ووضعت فوق الجرح قليلا من التراب لاكتم الدم ، وظللت أضغط على الاصبع براحة يدى ، ولم أرفعها الا بعد أن اطمأننت الى أن الدم قد توقف عن النزف ·· غير أن وردة ألقت بعد ذلك ـ ومن تلقاء نفسها ـ برأسها على كتفى ·· وهى تقول لى : «أنا دايخه يا محمد» وشارعت أتحسس جبينها ، وأربت على خدها ، ووجدتنى ـ ولا أدرى لماذا ـ أمسك برأسها ، واريحها على ركبتى ، وأقول لها : « نامى كده شوية » ·· ونامت وردة ، ورفعت الى عينيها الخضراوين ، وتفرق شعرها الحريرى على ركبتى ، ورمقتنى ، باسمة فسألتها :

ـ انت عنيك خضرة ليه يا وردة ؟
ـ خلقة ربنا ·
ـ وشعرك أصفر ليه ؟
ـ قسمتى ·
ـ انت بتحبى تلعبى معاى ؟
ـ قوى ·
ـ وبتحبى تلعبى مع الاولاد التانيين؟
ـ لا · ماباحبهومش ·
ـ طيب ·· ابقى تعالى نلعب هنا كل يوم لوحدنا بالطوق ·
ـ نلعب هنا لوحدنا ؟
ـ ايوه ·· موش أحسن ؟
ـ أيوه أحسن ·· خلاص ما عدتش ها أروح الجرن تانى ·· كل يوم ها اجى هنا ·· نلعب احنا الاتنين بس ·· وماعدتش ها العب مع حد تانى ·· بس اوعى تبقى توقعى زى النهاردة ·

ـ وايه يعنى·· لما تقعى ·· اذاوقعت ها اشيلك ·· وأنيمك ·· ماتخافيش أبدا وانت معاى ··

وراحت يدى تزيل ما علق بجلبابها من تراب ·· وارتفعت يدى ـ بعد ذلك ومن تلقاء نفسها أيضا ـ الى خدها تربت عليه ·· والى شعرها تتحسسه ·· وعدت أسألها :

ـ خلاص يا وردة ·· كل يوم هتيجى هنا نلعب سوى ··؟

ـ خلاص ·· يا محمد ·
ـ بس ما تقوليش لحد تانى ·
ـ حاضر موش ها أقول لحد تانى ·
ـ ونفضل كده لعند امتى ؟
ـ لعند ما نكبر ونبقى ····
ـ ونبقى ايه يا وردة ؟

ورفت على ثغرها ابتسامة مشرقة ·· وهى تجيب فى صوت هامس :

ـ نبقى عريس وعروسة ·

وكان الظلام قد حل·· وصوت الشيخ ابراهيم يرتفع بأذان المغرب ·· فنهضنا ·· وقد نسينا تماما أن « الباجور » لم يتم اصلاحه ، وبالتالى لم يعد الغداء لوالدى ، وان الفانوس لم ينته صنعه ، ولذلك فسوف يبيت والد وردة واخوتها ع الساقية فى الظلام ··

نسينا ذلك كله ·· ولم نذكر الا هذا الطوق الحديدى الذى طوقنا به منذ ذلك اليوم ·· ولم نتخلص من اساره حتى اليوم ·· لا أنا ··· ولا وردة !·